تطور الرومانسية في العراق

أ. د. أنيس الرحمن*

الملخص:

الرومانسية هي ثورة على التقاليد الأدبية البالية والمفاهيم القديمة والأفكار التليدة وهي تدعو إلى إعلاء شأن العاطفة والخيال وتكريم الطبيعة والرجوع إليها عند الكآبة والحزن والبحث عن أسرار الكون والحياة البشرية والفرار عن صورة الواقع الاجتماعي والفكري. وبرزت الرومانسية بظهور الطبقة المتوسطة في المجتمع الأوربي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادي؛ لأن الأدب الكلاسيكي كان أدبا أرستقراطيا محافظا وكان الكتاب والشعراء يؤمنون بحق الملوك الإلهية ويعتمدون على الطبقة الأرستقراطية التي كانت تعولهم. وفي هذا السياق ظهرت الرومانسية في العراق في فترة ما بين الحربين العالميتين بعد ظهور الطبقة البرجوازية التي كانت تتكون من صغار الملاكين والتجار الموظفين والحرفيين وترعرعت وتطورت في المجتمع العراقي متأثرة إلى حد كبير بالحركات الرومانسية في البلاد الغربية والعربية الأخرى على حد سواء.

الكلمات المفتاحية: الرومانسية، العربية، الغربية، العراق، الشعراء، الرومانسيّون.

مشكلة البحث:

إنني قد لاقيت في هذا السبيل مشاكل عديدة وواجهت موانع وعراقيل كثيرة بسبب قلة المراجع والمصادر على هذا الموضوع في الهند وعدم المساعدة والتعاون من قبل المطابع والمكتبات الأدبية والعلمية في بلاد الرافدين ولو كان هذا لسبب الأوضاع السياسية والأحوال الأمنية في العراق. ولذلك اكتفيت بالاستفادة من الكتب الموجودة في المكتبات المختلفة للجامعات الهندية وخاصة الموجودة بمدينة كولكتا ودلهي وما يجاورهما من المدن والأمصار ومصادر المكتبات والمؤسسات الإلكترونية عبر الإنترنيت. فبالرغم من هذه المشاكل والموانع قد حاولت في هذا المقال الوجيز إلقاء الضوء على تطور الشعر الرومانسي في العراق بظهور الطبقة المتوسطة وشعرائه في فترة ما بين الحربين العالميتين وما بعدهما الذين كانوا بطبعهم ووضعهم رومانسيين وطبيعتهم الرومانسية قد تصور لهم مجتمعا مثاليا يعيش فيه الناس متساويين ومتمتعين بالأمن والسلام.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عالية، كولكتا، الهند.

الدراسات السابقة:

ومن الواضح أن الحركة الرومانسية لها أهمية كبرى ومكانة عالية من ناحية محتوياتها وأساليبها، وهذا ما جعل الأدباء والكُتّاب يعتنون بها. وفي هذا السياق قرأت بعض الكتب على موضوع "الحركات الأدبية في البلاد العربية" فأعجبت بالحركة الرومانسية في البلاد العربية وخاصة في العراق؛ لأنها تتناول قضايا الشعب ومشاكله في حياته اليومية خلافا عن الكلاسيكية التي تدور حول الطبقة الأرستقراطية ولمّا قمت بدراستها بدّقة وإمعان النظر وجدت الشعراء من بلاد العراق يتفوّقون على أقرانهم من البلاد العربية الأخرى من ناحية التعبير عن الحزن والتشاؤم والتأمل والتخيل والانطلاق الفكري والتحرر من القيود الموروثة وبالأخيلة البديعة والمفاهيم المبتكرة التي أخذها العراقيون عن شعراء وأدباء البلاد الأوربية والعربية وكذلك من الأدب التركي والفارسي. وحينما بذلت قصارى جهودي لجمع المعلومات عنها وجدت الكتاب والنقاد لايعتنون بهذا المجال كما يليق بالحركة الرومانسية. وهنا أذكر بعض الدراسات التي ذكرت الرومانسية ونشأتها وتطورها في العراق.

"شعراء عراقيون" لمنذر الجبوري، "تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي" للدكتور داود سلوم، "الأدب العصري في العراق" لرفائيل بطي، "الشعر العراقي" – أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر، "الشعر العراقي الحديث"، "أثر التيّارات السياسية والاجتماعية فيه"، " شعراء العراق في القرن العشرين" ليوسف عزّ الدين، "الشعر والشعراء في العراق" لأحمد أبو سعد، "محاضرات عن الشعر العراقي الحديث" لعبد الكريم الدجيلي، "تطور الشعربي الحيث في العراق" للدكتور علي عباس العلوان "نازك الملائكة وآثارها الأدبية والشعرية" – رسالة الدكتوراه لفرحانة صديقي، "الرومانتيكية" لـ محمد غنيمي هلال وعدا ذلك. قد بحث الكتاب الكبار والنقاد العظام في المصادر المذكورة بالتفصيل والإمعان عن الشعر العراقي وجوانبه المتعددة.

التمهيد:

نجد العراق في تاريخه الطويل أنه قد واجه عديدا من النكبات والكوارث وكثيرا من الهجمات والغارات من قبل الأقوام المختلفة في كل زمان وعصر لكن الإعصار التتري الذي جاء بها هولاكو خان حفيد جنغيز خان كان أشد قساوة وفتكا من ناحية التدمير والتخريب. فقد هدمت جنود

هولاكو خان الدور وهتكت الخدور ودكت صروح الحضارة العربية ونهبت كل غال ونفيس وهكذا دمرت الحضارة الإسلامية الكبرى وفجعت اللغة العربية وآدابها بانتهاب الكتب وإحراقها وإلقائها في نهر دجلة. وبعد هذه الهجمة طرأت على العراق فترة مظلمة امتدّت إلى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٩م. فتوجه شعراؤها وأدباؤها إلى بلاد أوربا والبلاد العربية الأخرى للحصول على العلوم والآداب والفنون وتأثروا بالحركات الأدبية والثقافية والأفكار المبتكرة والمفاهيم الحديثة التي ظهرت في أوربا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الميلاديين. ولما رجعوا إليها فتح الواعون في العراق أعينهم ونوروا مصابيحهم العلمية والأدبية من مصابيح الغرب وفي نفس الفترة من الزمن اتصلوا بشعراء العرب في البلاد العربية وخاصة بالشعراء المهجريين الذين كانوا متأثرين بالعلوم والفنون الغربية.

وهذه الحركة كان يقودها شعراء العراق الكبار أمثال أنور شاؤل وعبد الناصري والجواهري وبلند الحيدري وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة وغيرهم فهؤلاء الشعراء هم من أصحاب الحرية في الشكل وأصحاب التنوع والابتكار في الموضوع فمنهم شاعر رومانسي، وشاعر سريالي، وشاعر وجودي، وشاعر واقعي. فانتقل الشعر بمساعيهم من قيود القافية وحدود الأوزان وشروط العروض إلى حرية القوافي والأوزان والعروض ومن حدود الأفكار العتيقة ودائرة النفع الشخصي إلى التفكير في الحياة ومعالجة مشكلات المجتمع.

وإذ الرومانسية في الأصل هي ضد الكلاسيكية فنمت وتطورت أولا في البلاد الغربية مع ظهور الطبقة البرجوازية، هكذا نمت وتطورت وترعرت في العراق في الأوضاع والظروف نفسها.

هذا، وعند إمعان النظر في تاريخ نمو الطبقة المتوسطة العراقية وظهورها نجد معظم الكتاب والباحثين يتفقون على ظهورها منذ دخول الإنجليز عام ١٩١٤م في العراق[1] والثورات المتواترة ضد الإنجليز وفرت للعراقيين وسائل الاتصال بالمصريين والسوريين و"هذه الطبقة اتسعت ونشطت باستمرار الهجرة إلى المدن متأثرة بالأعمال الحكومية ودخول الآلة الحديثة وآثار الثورة الصناعية التي كانت تصل إلى العراق ببطء شديد فضلا عما كانت تتركه آثار المطبعة وصحافة البلاد

1 السيد عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى ص:١٣. مطبعة العرفان صيدا. لبنان ١٩٧٢م

العربية ولاسيما صحافة مصر التي كانت تشهد حركة أعمق في المجتمع المصري وبخاصة في الثقافة والفكر والأدب".[٢]

ومن الملاحظ هنا أن الصحف والجرائد والمجلات قد أدت دورا كبيرا في نشر الأفكار الأدبية الجديدة خاصة بعد إعلان الدستور العثماني في عام ١٩٠٨م ورفع الحجز عن الآراء. فانطلقت الأقلام من عقالها وخرج الصحفيون إلى ساحة الحرية. ووصل عدد الصحف اليومية بعد مدة قليلة من إعلان الدستور العثماني من ٣ إلى ١٥. يقول في هذا الصدد الأستاذ رفائيل بطي:

"لم تمض أسابيع قليلة على إعلان الدستور حتى صعد عدد الصحف اليومية في الآستانة من ٣ إلى ١٥ .... وكان نصيب العراق من البلاد العثمانية أن سرت إليه هذه الموجة فهبّ المشتغلون بالسياسة والكتاب لإنشاء الصحف والمجلات يكتبونها باللغتين التركية والعربية حتى بلغت هذه الصحف في بغداد وحدها في خلال سنتين خمسا وعشرين جريدة ومجلة".[٣] وعرفت العاصمة العراقية أول جريدة أهلية أو شعبية باسم "جريدة بغداد" وذلك في السادس من شهر آب سنة ١٩٠٨م.[٤]

ومن بين المجلات والصحف الصادرة من العراق قد تميزت مجلتان . "الحرية" و"الوميض" بسماتهما الخاصة بالأدب والنقد وأهدافهما كانت تتلخص في الدعوة إلى القيم الجديدة في الأدب والشعر وإلى الأصناف الحديثة والأفكار الجديدة مثل الرومانسية والرمزية. يقول بهذا الصدد الدكتور علي عباس علوان:

"دعتا دعوة واضحة إلى قيم جديدة في الأدب والشعر، نلمح فيها بعضا من السمات الرومانسية. ولقد ترسمت هاتان المجلتان خطى حركة التجديد في مصر متأثرة تأثرا شديدا . يصل حد النقد والترديد . بمدرسة الديوان في آراء روادها شكري والعقاد والمازني. مشيدة بمدرسة المهجر وشاعرية أقطابها: جبران وأبي ماضي وميخائيل نعيمة."[٥]

ظهور الرومانسية في العراق:

أما ظهور الحركة الرومانسية العراقية فهي ترجع إلى اتصال العراقيين بالسوريين والمصريين واطلاعهم على الأدب المصري والأدب المهجري مباشرة والأدب الغربي الرومانسي عن

[٢] – د. علي عباس علوان: تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص:٣٩١. منشورات وزارة الإعلام الجمهورية العراقية ١٩٧٥م.
[٣] – الأستاذ رفائيل بطي: الصحافة في العراق ص:٢٠-٢١. مطبعة معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٥٥م.
[٤] – المصدر السابق ص:٢٢.
[٥] – د. علي عباس علوان: تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص:٣٩٩.

طريق الترجمة التي قام بها الأدباء من بلاد سوريا ومصر وجماعة المهجر في أمريكا الشمالية والجنوبية.

وتناسب الإشارة هنا إلى أن حركة الترجمة في العراق إذا ما قورنت بالحركات والأعمال في مصر وبلاد الشام تمثل نصيبا قليلا ولكن إذا قارنّا أعمال أدباء العراقيين المترجمة من اللغة الفارسية فهي تمثل نصيبا وافرا لأن الأدباء العراقيين دائما قد اعتنوا بالشعر الفارسي ومن هنا لقي الخيام ورباعياته وأبيات حافظ الشيرازي وخاصة غزله وشيخ سعدي وأشعاره وحكاياته اهتماما واسعا من العراقيين. فترجم كثير من الأدباء العراقيين رباعيات الخيام وغزل الشيرازي من الفارسية نثرا وشعرا وهذا كان بسبب إجادتهم كلتا اللغتين. فمعظم الأدباء والشعراء العراقيين مثل الزهاوي والرصافي وغيرهما كانوا يتقنون اللغة الفارسية إلى جانب اللغة التركية واللغات الأجنبية الأخرى. ولذلك نجد كثيرا من القصائد الرومانسية قد ترجمت من اللغات الأجنبية. فقد ترجم الدكتور نقولا فياض قصائد لامارتين وهي "البحيرة" و"ناقوس القرية" و"اذكريني" و ما إلى ذلك... ومن أبرز قصائد دي موسية التي ترجمت في هذه المدة قصيدتاه "الشعراء" و"صخرة النجوى". ومما ترجم من شعر بودلير قصيدتاه "السياحة" و"النساء المحكومات" وترجمت قصيدة جون كيتس "أنشودة الشعراء". ومما ترجم من شعر الشاعر التركي عبد الحق حامد قصيدتان مطولتان باسم "يرثي زوجته" كما ترجمت بعض مقاطع من قصيدة الشاعر الفرنسي "ميلفوا" بعنوان "تناثر الأوراق".[٦]

ففي هذا السياق يمكننا القول إن الحركة الرومانسية لم تصل العراق عن طريق الغرب فقط بل وصلت من الشرق أيضا وتأثرت باللغة الفارسية والتركية كما تأثرت باللغات الأوربية الأخرى.

ومن هنا نجد أن ظهور هذه الحركة الرومانسية كانت متأثرة للغاية بظهورها في البلدان العربية الأخرى. ومما لايشك أحد فيه أن الأدباء المصريين والمهجريين كانوا يدعون إلى إنشاء أدب جديد عن طريق المجلات والجماعات مثل مدرسة "الديوان" وجماعة "أبولو" و"العصبة الأندلسية" و"الرابطة القلمية". وقد تأثر الأدباء العراقيون بهذه الحركات والاتجاهات وخاصة بعد فشل الثورة

[٦] – للاستزادة، يُنظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق للدكتور علي عباس علوان ص:٤٠٥.

العراقية الكبرى عام ١٩٢٠م. وبدأت تلمع ملامح الرومانسية في الشعر العراقي في هذه الفترة في قصائد الشعراء العراقيين الذين حملوا رأية التجديد في الأدب مثل محمد بسيم الذريب وعبد القادر رشيد الناصري وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وغيرهم.

وتوجد هذه المؤثرات الأجنبية بصورة واضحة في دواوين الجيل الجديد من الشعراء الشباب مثل بدر شاكر السياب وخاصة في ديوانه "أزهار ذابلة" و"أساطير" ونازك الملائكة في ديوانها "عاشقة الليل" و"شظايا ورماد" و"مأساة الحياة" التي نظمتها عام ١٩٤٥م ونشرتها عام ١٩٧٠م وكانت هي في الثانية والعشرين من عمرها كما ذكرت في مقدمتها.[٧] وعبد الوهاب البياتي في ديوانه "ملائكة وشياطين" و"أباريق مهشمة" و"عشرون قصيدة من برلن" و"الحديقة المهجورة" و"في المنفي" وبلند الحيدري في ديوانه "خفقة الطين" وعلي الشرقي في ديوانه "عواطف وعواصف".

تطور الرومانسية في العراق:

وقد ظهرت ملامح الرومانسية في قصائد محمد بسيم الذريب في الفترة ما بعد الثورة الكبرى فالشاعر يعبر في قصائده عن الأحزان والكآبة الناجمة عن العواطف الذاتية والأحاسيس الفردية والأشواق القلبية تجاه الطبيعة، وفي الحقيقة أنه كان متأثرا في هذا المجال "بشعراء المهجر خاصة إلياس فرحات ... وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وجبران خليل جبران وغيرهم."[٨] ويقول محمد بسيم الذريب في قصيدته "قبلة الحب":

عند ما الشمس وراء البحر تغيب — فتعالي نتمشى في الحقول
حيث لاتبصرنا عيـــن الرقيب — لا ولانسمع عذلا أو عذول
فـإذا غـرد ثـم العندليـب — منشدا أنشودة الحب الجميل
قدمـــي لي شفتيك يـا ملاك — وامنحـيني قبلة الحب هناك[٩]

نلاحظ في هذه الأبيات أن الذريب قد تأثر بشعراء المهجر وخاصة جبران وأبي ماضي في الأسلوب والأفكار وسار على خطواتهم في إظهار المعاني والأحاسيس. ويقول الدكتور علي عباس العلوان عن هذه القصيدة:

---

[٧] – من المقدمة لديوانها ص:٦.

[٨] – يوسف عز الدين: شعراء العراق في القرن العشرين ص:٢١٩. مطبعة أسعد بغداد ١٩٦٩م.

[٩] – د. علي عباس علوان: تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص:٤٠٧.

" وليس لنا أن نعلق على هذا الضعف في التعبير نتمشى في الحقول . عين الرقيب . عذلا أو عذول ولانشير إلى هذه (الأوامر) الساذجة في (تقديم الشفاه) و (منح القبل) إنما نشير فحسب إلى محاولة الشاعر التعبير عن نفسه ووجدانه وتصوير تجربة حبه الساذجة. وفي سبيل هذه المواصفات جاءت قصائده التي تحمل هذه العناوين "يا نسيم" و"ياوردة" و"اشتكى" و"غرد البلبل" و"الحياة شقاء". فنلمس فيها أيضا محاولات الشاعر التعبير عن تجربته الذاتية وفي قدر من الحزن والعواطف المضطربة والغامضة أحيانا لا سيما حين يتخذ من الطبيعة صديقا وملجأ يناجيه."[١٠]

ولعل الشاعر عبد القادر الناصري هو أول من حمل راية الرومانسية في العراق وعزف على أرق الأوتار الرومانسية. فطبقا لقول الدكتور علي عباس علوان: فهو "أول صوت شعري في العراق يحمل غناء الرومانسيين وعواطفهم وتعبيرهم عن أحاسيسهم الذاتية وتجاربهم الشخصية".[١١]

وحاول الناصري في أشعاره لتحرير الشعر العراقي من القيود البالية والشروط الجامدة. ولهذا الغرض أنه قام بتقليد الشعراء المهجريين أمثال جبران وأبي ماضي وبعض شعراء "أبولو" و"مدرسة الديوان" وهذا واضح في ديوانه "ألحان الألم" و"صوت فلسطين" وخاصة في حين هو يقول:

شفتاك أغنيتان هاجعتان في وتر طروب
أو طائران مغردان على ذري فنن رطيب

بل برعمان تبسما هزءا بأحلام القلوب

بل كوثران تفجرا بالخمر من نبع الغيوب
بل كوكبان تألقا بالنور في أفق رحيب
بل واحة سجداء حالمة بأنفاس الطيوب
لما أزل في أفقها نجما يحن إلى الغروب [١٢]

وفي منظومة أخرى يقول:

تعالى نهجر الناس لنطفي لوعة الحب

[١٠] – المصدر السابق ص:٤٠٨.
[١١] – المصدر السابق ص:٥٣٢.
١ منذر الجبوري: شعراء عراقيون ص:١٠٨. المطبعة: الجمهورية العراقية وزارة الإعلام ١٩٧٧م.

ونروي ظمأ النفس ونروي غلة القلب

إلى كم يحلم الصب بنيل الأمل العذب؟

تعالي نهجر الناس

تعالى نهجر الناس ونقضي العمر بالحستي

ونبني للهوى وكرا على أحـــلامنا يبنى

ففي أفراحنا هم إذا عن لهونا نمنا

تعالى نهجر الناس[١٣]

ومن الجدير بالذكر أن الناصري قد قام بالتزام الأوزان الخليلية والقوافي في القصائد ولكن لايعني ذلك أنه لم يحس بالحاجة إلى التجديد وفي الحقيقة أنه كان يدرك أهمية التجديد ولذلك نجد منظوماته وقصائده مجموعة القوافي المتعددة "فلكل مقطع قافية، إن تعدد القوافي هذا استتبع تبدل وحدة البناء في القصيدة فلقد حلت الوثبة الشعرية أو ما نسميه بشريط الصور محل البيت مثل ذلك قصائده "قلب من تراب" "في ليلة عيد" "ليالي بغداد" و"سألتني"".[١٤]

وعلى هذا النحو غني أنور شاوول في ديوانه "همس الزمن" و"الألم" والقصائد الأخرى التي قرضها في العشرينيات والثلاثينيات بالرومانسية فيبحث فيها عن أهل القرى والأرياف وقضاياهما. كما نراه في قصيدته "إلى بائعة شوك" يقول الدكتور علي عباس علوان في هذا الخصوص:

"نحس بانتمائه الروحي والنفسي إليهم لأنهم في نظره يمثلون الطيبة والبساطة أمام واقع المدينة ومجتمعها المعقد الزاخر بالبهارج الكاذبة والمآسي الدامية والمثل المنهارة يخاطب هذه البائعة:

البرد يلذع وجنتيك وساعديك العاريين

والحقل أقفر لا رفيق يزيل عنك الغمتين

إلا الطيور مرفرفات حوما في الجانبين

لو تستطيع بمنقر دفعت أذاك ومخلبين

[١٣] – عبد القادر رشيد الناصر ديوانه ج٢ ص:٣٣.

[١٤] – من المقدمة لديوانه ج٢ ص:١٣.

وحمت حماك بمقلتين[١٥]

وتستمر مقاطع القصيدة على هذا الأسلوب في جو الحزن الشفيف والخوف الدائم، ونجد نفس البراءة والسذاجة متمثلة في صورة فتاة الشوك وتنتهي هذه المنظومة بهذا المقطع:

قطر الندى هذا على الأشواك أو دمع المقل

نار الأسى هذي التي تخفين أم نور الأمل

أني أراك إلى المدينة تقصدين على عجل

فحذار تخدعك البهارج في مقال أو عمل

أو تومنين بما ترين[١٦]

ونجد منظوماته الأخرى حافلة بالسمات الرومانسية الأصلية شكلا ومعنى وقد أصبح هذا ممكنا له بسبب اطلاعه الواسع على الأدب الرومانسي الغربي ومعرفته باللغة الإنجليزية. فبعض الأحيان نلاحظ أنه "يقتبس عن دي موسيه قصيدته (الكوخ المحترق) وعن لامارتين قصيدته (المساء) وعن لو نجفلو قصيدته (الأمل). ولعل هذه الاقتباسات وذلك الاطلاع كانا من أسباب وضوح بعض السمات الرومانسية في بعض قصائده".[١٧]

مما لاريب فيه أن الرومانسية في أواخر العقد الثالث من القرن العشرين في العراق قد نمت وترعرعت مستفيدة من مدرسة "أبولو" وأدب المهجر فكان الشعراء العراقيون في إطار الموجة الرومانسية في العقد الثالث والرابع مقلدين للشعراء العرب الآخرين أكثر من تقليدهم للشعراء الأوربيين الرومانسيين لأنهم قد فهموا واطلعوا على الاتجاه الرومانسي من خلال ما كانوا يقرءونه من الأفكار والآراء في قصائد جبران ومطران وأبي ماضي والمأزني والريحاني وشكري وعلي محمود طه وتأثروا "بما كانت تنشر المجلات في لبنان وبخاصة "الأديب" وما كانت تنشر مجلات مصر وبخاصة "الرسالة" وما صدر من كتب ودواوين للشعراء اللامعين آنذاك أمثال محمود حسن إسماعيل وعلي محمود طه المهندس وإلياس أبي شبكة خصوصا وعمر أبي ريشة وسعيد العقل

[١٥] د. علي عباس العلوان: تطور الشعر العربي في العراق ص:٤٠٩.

[١٦] – المصدر السابق ص:٤٠٩.

[١٧] – المصدر السابق ص:٤٠٨.

الذين ظهر أثر شعرهم في شعر الناصري والوتري ومردان والحيدري صفاء والحيدري بلند في ديوانه "خفقة الطين".[١٨]

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥م كان الوطن العربي آنذاك يغلي بمختلف مشاعر التمرد والرفض والعصيان. ففي هذه الأوضاع المؤلمة نهض عدد من الشعراء العراقيين الشبان من شعراء الرومانسية أمثال عبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب وبلند حيدري ونازك الملائكة الذين تمردوا على النظام الكلاسيكي واتبعوا نظام التفعلة بدلا من هندسة الشطرين وأدخلوا في الأدب العراقي المفاهيم الجديدة والأفكار الحديثة وحرروا القصيدة العربية من شكلها القديم. وكان يقود من هؤلاء الشعراء الرومانسيين بدر شاكر السياب الذي قد شاهد دمار الحرب العالمية الثانية وضحاياها وخسائرها وأثرت هذه الحوادث المؤلمة في نفسه. يقول ناجي علوش عن حياته المؤلمة وأثرها على الحركة الرومانسية:

"فبدر شاعر "مازوم" وقد عانى الأزمة على صعيد المثل وعلى صعيد وجوده الفردي بينما كانت الرومانسية العربية حالمة سابحة في خيالات حسية ومترفة."[١٩]

بدأ بدر شاكر السياب حياته في الشعر الرومانسي في سن مبكر متأثرا بالشعراء الرومانسيين من العرب وخاصة بإلياس أبي شبكة وعلي محمود طه وأيضا قرأ مسرحيات شكسبير ودواوين كيتس وشيلي ووردزورث وبايرون واليوت ودائما حاول أن يوسع معلوماته عن الآداب الغربية ولهذا الغرض نقل دراسته الجامعية في دار المعلمين العالية في بغداد في سنتها الثانية من قسم اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية.[٢٠]

وكذلك أيضا حاول خلال سنوات حياته في الكلية أن يوسع معرفته بالأدب الفرنسي عن طريق القصائد المترجمة. وقام بدراسة العلوم والآداب الغربية والثقافات الأجنبية حتى "يضحي برأسه ممثلا لموجة الشعر العربي المعاصر في مد انتقالها من شاطئ الرومنطيقية الحالمة من "أزهار

[١٨] – أحمد أبو سعد: الشعر والشعراء في العراق ص:١٢. مطبعة دار المعارف بيروت ١٩٥٩م.
[١٩] – من المقدمة لديوان بدر شاكر السياب ج١ ص:٢٤.ظ مطبعة دار العودة بيروت ١٩٧٤م.
[٢٠] – ديوانه ج٢ ص:٤٣.

ذابلة" و"أساطير" إلى أعلى معاني الالتزام القومي والإنساني العام في "أنشودة المطر" و"منزل الأقنان" و"شناشيل ابنة الجلبي".[٢١]

يقول في قصيدته "رئة تتمزق":

كم ليلة ناديت باسمك أيها الموت الرهيب
وودت لأطلع الشروق على إن مال الغروب
بالأمس كنت أرى دجاك أحب من خفقات آلِ
راقص آمال الظماء .... فبلها الدم واللهيب[٢٢]

ويقول في قصيدته الأخرى التي عنوانها "اتبعيني":

واختفى في ظلمة الليل قليلا فقليلا
وتناءت في ارتخاء وتوان
غمغمات مجهدات وأغاني
وتلاشت تتبع الضوء الضئيلا
اقبلي الآن ... ففي الأمس الذي لا تذكرينه
ضو الشطآن مصباح كئيب في سفينه
واختفى في ظلمة الليل قليلا فقليلا[٢٣]

يقول الدكتور لويس عوض منتقدا على هاتين القصيدتين "أن قصيدة "رئة تتمزق" تعدّ تنويعا على قصيدة "كيتس" "أنشودة إلى بلبل" كما أن قصيدة "اتبعيني" تعدّ تنويعا على قصيدة شيلي "اتبعيني .. اتبعيني" من بروميثوس طليقا.[٢٤]

وأيا كان الأمر فإن قصائده الرومانسية وآثاره الأدبية تنم عن أنه كان شاعرا رومانسيا بحتا إذ كان يشعر بالظلم واستغلال القوى الضعيفة. وطبيعته الرومانسية كانت تحلم بأن يكون للإنسان مجتمع مثالي يعيش الناس فيه متساويين وبأمن وسلام يتعاون بعضهم مع بعض. ولعل

[٢١] – أنطون غطاس كرم كتاب العيد ص:٢٧٨.
[٢٢] – ديوان بدر شاكر السياب أزهار وأساطير ج١ ص:٤٣.
[٢٣] – المصدر السابق ج١ ص:٤١.
[٢٤] – مقدمة ديوانه ج١ ص:٢٧.

السبب وراء هذه النظرية النبيلة والفكرة الكريمة هو الظلم والطغيان والاستغلال التي كانت تسود المجتمع العراقي في زمنه وذلك لأن أسرته قد عانت منها كثيرا وفضلا عما لحق من الآلام والأحزان الذاتية به إذ فقد أمه وخسر أباه وأضاع جدته في بداية حياته ثم سرعان ما سلبت حبيبته منه.

أما الشاعر عبد الوهاب البياتي فبدأ حياته الشعرية كشاعر رومانسي. وتأثر بالتصوف بوجه خاص وقرأ باهتمام بالغ: الجامي وجلال الدين الرومي وفريد الدين العطار وخيام وطاغور".[٢٥] وهم من كبار شعراء الصوفية. و"لقد عانى هؤلاء محنة استبطان العالم ومحاولة الكشف عن حقائقه الكلية من خلال تجربة التصوف الممتزجة بالرؤية الشعرية النافذة".[٢٦] ولكن ليس معنى هذا أنه لم يتأثر بالشعراء المعاصرين والأفكار الحديثة الأدبية وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحركات الرومانسية قد تأثرت إلى حد ما بالحركات الصوفية التي كانت رائجة في القرون الوسطى والتي دعت الناس إلى الفرار من الحياة المدنية ومن أحزان الحياة الاجتماعية وآلامها كما دعتهم لشد الرحال إلى الأماكن البعيدة من المدن والأمصار فانطلاقا من هذه الفكرة سافر البياتي إلى أقطار مختلفة وشغل فيها بوظائف عديدة وكان من نتيجة ذلك أن اطلاعه على تجارب الشعر العالمي قد اتسع وتعمق. يقول البياتي بنفسه في هذا الخصوص:

"ولم يكن أدباء التعبير عن الأزمة هم من عرفناهم وحدهم ولكننا عرفنا بيرون وشيلي وكيتس وبودلير ورامبو وفكتور هيجو وهكذا عرفنا أنواعا متعددة من الإبداع الفني وتخطينا مرحلة التاثر بماجدولين وغيرها من الأعمال الأدبية الرومانسية".[٢٧]

ومن هنا يمكن لنا القول إن هذه الآراء الجديدة والأفكار الحديثة والمفاهيم الفنية المبتكرة التي عرضها هذا الشاعر العظيم تمثل قفزة نوعية عظيمة تختلف عن أفكار الشعراء العرب الآخرين المعاصرين وآرائهم كما نجد في قصيدته "مسافر بلا حقائب" عن الرجل الذي يعيش على التوكل ويلوذ بالفرار إلى القناعة والصبر:

عبر التلال مستنقع التاريخ يعبره رجال

عدد الرمال

[٢٥] – طراد الكُبَسِي: مقدمات في الشعر السومري الإفريقي الصوفي ص:٢٣٢. وزارة الإعلام الجمهورية العراقية بغداد.

[٢٦] – ديوان البياتي تجربتي الشعرية ج٢ ص:٣٨٧. دار العودة بيروت ١٩٧٢م.

[٢٧] – المصدر السابق ص :٣٨٠.

والأرض مازالت وما زال الرجال

يلهو بهم عبث الظلال

مستنقع التاريخ والأرض الحزينة والرجال

عبر التلال

ولعل قد مرت عليّ ..... عليّ آلاف الليال

وأنا . سدى . في الريح أسمعها تناديني تعال[٢٨]

وقال في قصيدته الأخرى عنوانها "ثلاث رباعيات" عن الرجل المحكوم الذي لايمكن له أن يتلذذ بالحرية والاستقلال:

رأيت في المنام

محبوبتي عارية ترقص في كأس من المدام

أردت أن أشربه ولكنني غرقت في الكاس وفي الظلام

لأنني كنت مغني صاحب الجلالة السلطان

أردت أن أعانق الأطفال في الطريق

أردت أن أشعل في قصائدي الحريق

لكنني غرقت في صمتي وفي بئر حياتي الأسود العميق

لأنني كنت مغني صاحب الجلالة السلطان

وضعت قلبي في إناء ووضعت السيف في إناء

محبوبتي امتلكتها تقطر من شفاهها الصهباء

صدخت بالغناء

لأنني قتلت ذا الجلالة السلطان".[٢٩]

[٢٨] – ديوانه أباريق مهشمة ج١ ص:١٦٩.

[٢٩] – ديوانه كلمات لا تموت ج١ ص:٦٠١.

يبدو من دواوينه وقصائده الأخرى أنه كان يمتلك في البداية أفكارا رومانسية متمردة فكان ينهل من التراث الرومانسي ذي النزعة الجهنمية فكتب "ملائكة وشياطين" حيث نعثر على البذور الأولى للحركة الانقلابية التي قام بها جيل الرواد في القصائد العربية ولما ضاق ثوب الرومانسية على تصوراته العالية وأخيلته البديعة وأفكاره النادرة مال إلى الاتجاه الواقعي الحديث وخاصة بعد سنة ١٩٤٨م خسر فيها العرب أرض فلسطين ووجدوا أنفسهم أمام الحقائق التي تنم عن حالتهم البائسة والأوضاع السياسية القاتمة التي قادتهم إلى الدمار والهلاك وبث في نفوس الناس روح الهزيمة والرضوخ. ففي هذه الأثناء كتب البياتي قصائد مثل "أباريق مهشمة" و"المجد للأطفال والزيتون" و"أشعار في المنفي" وأبرز فيها الأوضاع السياسية والظروف الاجتماعية العربية وتدهورها. وبالرغم من هذا كله فإنه ما ترك نزعات الرومانسية الأصلية في شعره بل مازال يقرض أبياته على المواضيع التي تتعلق بالعاطفة الإنسانية والحرية من عبودية الإنسان للإنسان وهذه هي حقا دعوة رومانسية بالأساس ونجدها عند الشعراء الرومانسيين الكبار.

أما شعر نازك الملائكة فهو يتميز بالنزعة الرومانسية والألم الحاد وبالحزن والشجن الرومانسيين وبالحس الإنساني في التعبير عن معاناة الإنسان في هذه الحياة المثقلة بالاضطرابات والحروب والفتن والدمار، تقول الشاعرة بنفسها في هذا الصدد:

"ولقد كانت "مأساة الحياة" صورة واضحة من اتجاهات الرومانسية التي غلبتني في سن العشرين وما تلته من سنوات. وكان من مشاعري إذ ذاك التشاؤم والخوف من الموت وهما مفتاح هذه الصورة الأولى من المطولة: صورة ١٩٤٥".[٣٠]

استعانت الشاعرة من آداب اللغات المتعددة والثقافات المختلفة واطلعت هكذا على المحاولات والتجارب الفنية التي قد مارسها الشعراء في البلاد الغربية والعربية معا وسرعان ما تعرفت على أن الرومانسيين الغربيين يعشقون الليل ويحبون الموت ويشدون الرحال إلى البادية ويفضلون الحياة الريفية على الحياة المدنية هكذا نجد نازك الملائكة أنها هي عاشقة الليل وصديقة المساء وتجد في الموت راحة وسكونا وملاذا وإنقاذا من مشاكل الحياة وآلامها. "هذه هي تلتقي مع رومنطيقية "كيتس" النائحة ونفسية "آلن بو" السوداوي وعدمية "اليوت" الخاوي. وتأملات الشعر المهجري

[٣٠] – ديوان نازك الملائكة ج١ ص:٩. دار العودة بيروت ١٩٧١م.

الصوفية وتكنيك الشعر التصويري ولكنها تظل على الرغم من ذلك مختلفة بشخصيتها المستقلة وبطابعها الخاص المتصل بينابيع الإلهام الصادقة في نفسها مما يدل على ملكتها الشعرية الأصلية".[٣١]

وهذا الحزن والهم يوجد بصورة واضحة في قصيدتها التجديدية الأولى المعنونة "الكوليرا" التي نظمتها عام ١٩٤٧م في حين انتشر مرض الكوليرا في مصر فهي تقول في هذه القصيدة:

طلع الفجر
أصغ إلى وقع خطى الماشين
في صمت الفجر أصِخ أنظر ركب الباكين
عشرة أموات عشرونا
لا تحص أصخ للباكين
اسمع صوت الطفل المسكين
موتى موتى ضاع العدد
موتى موتى لم يبق غد
في كل مكان جسد يندبه محزون
لا لحظة إخلاد لاصمت
هذا ما فعلت كف الموت
الموت الموت الموت
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت".[٣٢]

ومن بين المنظومات المؤلمة التي غنتها نازك الملائكة "ماساة الحياة" و"أغنية للإنسان" و"شظايا ورماد" فهذه كلها تتعلق بالموضوعات الرومانسية وتزخر بالمآسي البشرية واليأس والقنوط من الحياة. وترى الشاعرة فيها الموت وسيلة للنجاة من آلام العالم وهمومه وأحزانه فهي تستخدم لمفهوم الموت ألفاظا متعددة أو مشتقات عديدة لإيضاح ما يستفيض به ضميرها ويرجع سببها إلى أنها شاهدت بنفسها مآسي الحرب العالمية الثانية وضحاياها وأحوالها القاسية التعسة، فتقول الشاعرة عن الموت وهي تعدّه وسيلة للنجاة من الحياة المؤلمة.

[٣١] – أحمد أبو سعد: الشعر والشعراء في العراق ص:١٩٢.
[٣٢] – ديوانها شظايا ورماد ج٢ ص: ١٣٨.

فهو ثار الطبيعة البارد المرِّ وسخرية الزمان العاتي
وحقوق الحياة لابد للميـ ـت منها في عالم الأموات[٣٣]

وتقول عن كارثة الحرب العالمية الثانية:

أين أهلوك يا قصور أتمت الثـ ـلج أم مزقتهم القاذفات
أسفا ضاقت الميادين بالقـب ـلى وما عاد يدفن الأموات
في سفوح الجبال تحت ذري الأشـ ـجار خلف القصور والأكواخ
ليس غير المولى عظاما وأشلا ءً وغير اكتآبة وصراخ[٣٤]

منذ البداية رفع أدباء وشعراء الرومانسية أصواتهم ضد قيود الكلاسيكية سواء أكانت هي في مضمون القصيدة أو في الهيكل الشعري على أساس الكلاسيكية. وحمل لواءها في العراق بعد الحرب العالمية الثانية الروّاد الثلاث وهم الذين حرروا القصيدة العربية من شكلها القديم. وثورتهم كانت موجهة إلى الاهتمام بالمعنى أكثر منه باللفظ فنجدهم يغنون في أشعارهم بالرجاء واليأس والفوز والفشل والحزن والكآبة والسرور واللذة وغير ذلك من العواطف الروحية والمشاعر النفسية. وهذه الخصائص الرومانسية توجد أكثرها عند الشعراء الرومانسيين في العراق لأن عنايتهم بهذا الجانب كانت عناية بالغة شديدة تتردد كثيرا على ألسنتهم وقصائدهم وكذلك أنهم كانوا يعتنون بالقرى والأرياف والفلاحين اعتناءً كاملا فنجد معظم القصائد الرومانسية تدور حول هذه الأفكار والمظاهر وقد أشار شاعر في إحدى مقالاته إلى هذا الجانب وقال: "إن كوخ الفلاح هو بيت الأمة الحقيقي وأن النهضة والتجديد لابد أن يأتيا عن طريق إصلاح هذا الكوخ."[٣٥] ففي القصائد تصور الشعراء بؤس الفلاح وكفاحه ضد المصائب والآلام. ففي ديوانه "عواطف وعواصف" يذكر "علي الشرقي" بؤس الفلاح وكفاحه ضد طغيان الأنهار العراقية وفيضانها وشكواه من الرؤساء وذوي الأثرياء وأصحاب الأرض فيقول:

أ كل هذا البذخ يا بغدادنا من برقة الحمار أو جرف الصخر

[٣٣] – ديوانها مأساة الحياة ج١ ص: ١٩١ .
[٣٤] – ديوانها مأساة الحياة ج١ ص:٤٥.
[٣٥] – الدكتور علي عباس علوان: تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي ص:٤٥٤.

من كسرة الفلاح أقداح الطلا ومن عصا الراعي الثمار والبطر
آه على الأرياف من أعمالنا عيونها عضبي تقادحت شرر[٣٦]

يعبر الشاعر في هذه الأبيات ومثلها عن نزعته الرومانسية تجاه الإنسانية ويرسم لنا صورة واضحة تبين حالة الفلاحين والفقراء. وسلكت نازك الملائكة المسلك نفسه في قصيدتها "الكوخ والقصر" فهي تقول:

فكنوز الغنى يجمعها الفلا ح في عمره الشقي المرير
ذلك الكادح المعذب في القر ية بين المحراث والناعور

كيف يجنى الأزهار والقمح والأز مار من يجرح يديه القَدُومُ
ويموت الفلاح جوعا ليفترّ لعيني رب القصور النعيم؟[٣٧]

ويقول بُلند الحيدري في ديوانه "حوار عبر الأبعاد الثلاثة" عن المجتمع الذي يحكم عليه السلطان حسب مشيئته ويضع القوانين والأصول لأغراضه الذاتية ليكون السلطان غير مسؤول عن رعيته.

فيقول الحيدري بهذا الشأن:

"العدل أساس الملك"

ماذا؟

"العدل أساس الملك"

صه .. لا تحك

كذب .. كذب .. كذب .. كذب

الملك أساس العدل

إن تملك سكينا تملك حقك في قتلي.[٣٨]

[٣٦] – المصدر السابق ص:٤٥٥.
[٣٧] – ديوانها ج١ ص:١٦٠.
[٣٨] – ديوانه: حوار عبر الأبعاد الثلاثة ص:٢٥.

وما أحسن القصيدة في هذا الباب التي قرضها السياب يقارن فيها بين الفلاح الفقير والتاجر الغني.

مات لا شاعر من القوم يبكيه ولا نادب من الأوفياء
غير طفلين مرَّغا في ثرى القبر جبينين صوَّحا من شقاء
وإبنة تعصف الهموم بخديها تريق الدموع دون انتهاء
مزق الثوب نفسه عند نهديها فوارتهما بكف الحياء
أمس قد مات صاحب القصر فانحلَّ على نعشه نسيج اللواء
وأغتذي كل تاجر يثقل الصوت والصدى بالرثاء
واعتلى النعش هامة المدفع الضخم وئيد الخطى رهيب الحداء
سار الحشد خلفه واجم الأذ فاس مثل القطيع خلف الرعاء
ذاك والله موكب للظلامات فهل أخطأته عين السماء[٣٩]

ولا شك في أن الشعراء في عهد الكلاسيكية كانوا يقرضون أبياتهم حول موضوع المدح والغزل والمراثي وكانت تدور أشعارهم حول الحياة المدنية أو الطبقة الارستقراطية التي كانت تعولهم. فلم يعتنوا بقضايا البائسين والفلاحين إلا نادرا. ولكن لما ظهرت الحركة الرومانسية في العراق مال الشعراء إلى القرى والأرياف واعتنوا عناية بالغة بقضايا سكانهم ومشاكلهم متأثرين بالشعراء الرومانسيين الغربيين الذين كان مجتمعهم الزراعي والصناعي قائما ومبنيا على أساس الظلم والطغيان والعدالة والمساواة لم تكن موجودة في ذلك المجتمع: "فكان الرومانتيكيون منهم يرون المجتمعات ظالمة آثمة. فيعطفون على ضحاياها من البائسين متأثرين في ذلك بآراء "روسو" هذه الآراء التي لقيت رواجا خاصة عقب الثورة الفرنسية وبعد أن سادت المجتمع موجة من التشاؤم أو الحزن العميق نتيجة للصعاب التي قامت في طريق الثائرين المصلحين".[٤٠] فبناء على هذه الفكرة الطيبة أي تقديس الإنسان والإنسانية من دون تفريق وتمييز. ثار الرومانسيون العراقيون على جميع الأنظمة والقواعد الأدبية القديمة وقيود المجتمع البشري البالية وراحوا يدعون الناس إلى الحرية الفكرية

[٣٩] – ديوانه أعاصير ج٢ ص:٤٦٠.
[٤٠] – الدكتور محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية ص:١١٠.

والأخلاقية والحق والخير والعدل والمساواة لجميع الناس في العالم حتى ضجت أصداءهم في السهول والصحراء وانتفعت منها البشرية كلها في جميع البلاد.

في القصص والمسرحيات الكلاسيكية نجد الأديب والشاعر كليهما يألفان المدن ويحبان المجتمعات المدنية ولكن في الأدب الرومانسي يذهبان كلاهما إلى القرى والأرياف ويختاران الموضوع منها كما ينتخبان البطل من بين سكان القرى. ومن هنا يتحدث الرومانسيون دائما في أدبهم عن الطبيعة بحيث أنها هي مهد ومنبع للأفكار الطاهرة والمفاهيم النادرة والأخيلة البديعة في جميع الأحوال والأماكن. ويألفون مناظر الطبيعة الوحشية كما يحبون مناظرها الجميلة ويقدسونها مثل تقديس الآلهة ويلجأون إليها عند الكآبة والحزن واليأس والقنوط وذلك لأنها نقية طاهرة من كل الشرور والمفاسد مثل الطفل البشري يولد نقيا طاهرا. ويكون مكان السكون والهدوء والطمانينة والسلم بدلا من موضع الآلام والآثام والمشاكل والأماكن للحروب والمعارك. ويعتبر "جان جاك روسو" الطبيعة "معهد التربية والتعليم" بقوله: "الإنسان إلى الإقامة في أحضان الطبيعة والتربي في تعاليمها حتى بلوغه مرحلة النضج."[٤١]

ويرى جبران خليل جبران الطبيعة بمثابة الأم عند الحزن واليأس والضعف وكما يرجع الطفل عند المصائب والآلام إلى أمه لتحرسه وتحفظه من الأخطار والمشاكل هكذا الطبيعة تحرس الإنسان من الرذائل والمفاسد، يقول الجبران في هذا الصدد:

"كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة فالشمس هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنومها على نغمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي وهذه الأرض هي أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها. والأشجار والأزهار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشهية والبذور الحية. وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبَّة."[٤٢]

لاشك في أن جبران قد أخذ هذه الفكرة الرومانسية من الرومانسيين الغرب ولكنه يتفوّق عليهم في مجالات عديدة بأخيلته البديعة وأفكاره العالية.

---

[٤١] – الدكتور ياسين الأيوبي: مذاهب الأدب ص:١٧٢.

[٤٢] – ميخائيل نعيمة: المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران ص:٢١٦.

ومن الملاحظ أن الرومانسية في العراق تدور في أكثر الأحيان حول الموضوعات المذكورة سلفا والشعراء العراقيون يحبون الطبيعة ومظاهرها المختلفة ويألفونها ويهربون إليها من مظالم الناس وتعسفاتهم كما هو واضح من أبيات الشاعرة نازك الملائكة التالية:

وتغنوا مع الرعاة إذا مرّ وا على الكوخ بالقطيع الجميل
وأحبوا النخيل والقمح والزهـ ـر وهاموا في فاتنات الحقول
شجرات الدُفليّ أجمل ظلا من ظلال القصور والشُرُفات
و غناء الرعاة أطهر لحنا من ضجيج الأبواق والعجلات
و عبير النارنج أحلى وأندى من غبار المدينة المتراكم
وصفاء الحقول أوقع في النفـ ـس من القتل والأذى والمآثم[٤٣]

فتهرب الشاعرة من قسوة الحياة المدنية وبيئتها المؤلمة المتلوثة بالمفاسد والفتن والخرافات وتأوي إلى أحضان الطبيعة لكي تتمتع بمناظرها البهيجة التي هي نافورة أفكارها الطاهرة المبتكرة. ففي قصيدتها "في الريف" هي تصف جمال الأرياف وتتمنى الحياة في أحضانها معتبرة إياها قطعة من الجنة. فهي تقول:

الصباح الجميل قد توّج الـود يان بالضوء والجمال البهيج
ما أحب الحياة في هـذه الجنـ ـة تحت الضياء بين المروج
ما أحب الصفاء يحتضن الأشجـ ار والوادي النضير الخصيبا
ما أرق الأزهار في مهدها الور ديِّ ماأعطر الرُّبى والسهوبا
كل شيء في هذه الجنة الحلـ ـوة يوحي بأننا قد وصلنا
ها هنا شاطئ السعادة هـذا حُلمُ قلبي فما ألذّ وأهنا[٤٤]

ومن جانب آخريقول بدر شاكر السياب في قصيدة عنوانها "تحية القرية" عن الحياة الريفية وأجوائها الصافية والتجول في وسط مناظرها البهيجة:

منظر تستخف ألوانه الطير فتزجي ألحانها الساحرات
و هدؤ الحقول تلقي لديه النفس ما ترتجيه من غابات

[٤٣] – ديوانها مأساة الحياة ج١ ص:١٤٨.
[٤٤] – ديوانها مأساة الحياة ج١ ص:٩٣.

فهو نور يهدي سفائن أفكاري إلى ماوراء بحر الحياة
فترى المبدع المصور فيما حولها من جنائن موثقات
في ابتسام الرياض للمد و الجزر لطوفان عذبي النغمات
يحملان الحديث عن مرقص البحر وحور الشواطئ اللاعبات
وعن الشط والنخيل السكارى في الليالي القمراء والمظلمات[٤٥]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرومانسيين العراقيين لا يحبون المظاهر الخارجية للطبيعة فقط بل يعرفون أسرارها وقيمتها ومتعتها فهم في حالة بائسة ومؤلمة يشعرون بالبهجة والسرور في ظلام الليل وكذلك أنهم في مظاهر العواصف وأمواج البحر والمعابد الصامتة والقصور العتيقة الخالية ونور النهار ورياح النسيم الصافية والأنهار الجارية يشعرون بالسكون والهدوء والراحة. ويحبون الليل لأنه مليء بالأسرار والرموز التي لاتدركها أنظار عامة الناس ويحبون الظلمات لأن الحقائق الكبرى تتجلى في ظلمات الليل حينما تنام عيون الناس بل قلوبهم تستيقظ فتتجلى عليها ما هو فوق الحقائق ويحبون القصور الخالية والأطلال البالية لأنها تذكر الناس بذكر الأحياء والقدامى من العظماء وبحقيقة الحياة في هذا العالم الفاني. فتقول الشاعرة نازك الملائكة في قصيدة "البحر" المترجمة من قصيدة "Childe Harlord Pilgrimage" الإنجليزية للشاعر بايرون:

أيها البحر آهِ ما هذه الأسـ وارُ تحت الحديد والنيران؟
أي شيء هذي القلاع الرهيبا ت؟ وما سر ذلك الطغيان؟
لقبوا سادة البحار وما هم غير طيف من الغرور الفاني
تتلقاهم قوي موجك الرا ئع بالموت والأذى والهوان[٤٦]

ترى الشاعرة في هذه القصيدة البحر بنظرة التقديس والإجلال وتتكلم عن رموزها وأسرارها وتنظر إليها بنظرة الأمل واليأس بدلاً من نظرة الخوف والدهشة والحرمان.

وهكذا نجد الليل وطناً حبيبا وصديقا مخلصا لدى الشعراء الرومانسيين العراقيين لأنه يتيح لهم الفرصة للسكون والطمأنينة من متاعب النهار وأحزانه ويتخيل الإنسان في ظلمة الليل عن

[٤٥] – ديوانه البواكير ج٢ ص:١٤٣.
[٤٦] – ديوانها من الشعر المترجم ج١ ص:٦٧٤.

العالم الذي يقع ما وراء الغيوم فهو يطير في الآفاق التي ليس لها الحدود ولا فيها القيود، يُعَبِّر بدر شاكر السياب عن الليل ومحاسنه فيقول:

ليت الليالي تنسى قلبي الألما والنجم ينبئها عنى بما علما
يعنيك يا ليل سر لا تبوح به أغمضت عنه عيون الناس فانكتما
إلا عيوني ما أغمضت ساهدها فبتن يرقبن منك النور والظلماء
صحبت فيك سري الأحلام مفزعها وعذبها! فطويت الغور والأكما[٤٧]

وتشير الشاعرة نازك الملائكة إلى محاسن وأوصاف الليل فهي تقول:

هو يا ليل فتاة شهد الوادي سراها
أقبل الليل عليها فا فاقت مقلتاها
ومضت تستقبل الوادي بألحان أساها
ليت آفاقك تدري ما تغني شفتاها
آهِ يا ليل ويا ليتك تدري ما مناها[٤٨]

وكذلك يصف البياتي الليل ويقول عنه:

آمنت بالليل الذي لا ينتهي ودفنت في جنح الظلام صباحي
وحطمت أقداحي على شفة الهوى ولقد حطّمت على الظمأ أقداحي[٤٩]

كانت الشاعرة نازك الملائكة دائما تعشق الليل فهي تغني في أكثر أبياتها بأسراره ورموزه وتعدّه وطنا حبيبا وصديقا مخلصا ومصدرا للسكون والطمأنينة وهي تحب الظلام اعتقادا منها بأن الحقائق الكبرى تتجلى في ظلام الليل، فهي تقول في هذا الخصوص:

يقولون عاشقة للظلام تحب الدياجي وتهوي السكون
وتنشد أشعارها للجبال وترسم أحلامها للعيون[٥٠]

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الأفكار والمواضيع في الأدب العربي ما كانت موجودة قبل ظهور الرومانسية، لأن تصور الليل والظلام عند العراقيين من عهد الجاهلية حتى نهاية عهد

[٤٧] – ديوانه البواكير ج٢ ص:١٤٥.
[٤٨] – ديوانها عاشقة الليل ج١ ص:٥٥٧.
[٤٩] – ديوانه ملائكة وشياطين ج١ ص:٤٨.
[٥٠] – ديوانها شظايا ورماد ج٢ ص:١٧٧.

الكلاسيكية كان مترادفا للمصائب والآلام والخوف والدهشة، ولكن عند الرومانسيين يوحي الليل معنى الانطلاق والتحرر وموضع السكون والراحة والتفكر في العالم الذي يقع ما وراء الغيوم ويطير في عالم الخيال والوهم بمساعدة الأحلام والإلهام وهذا العالم في نهاية الأمر يرجع إلى الشاعر الرومانسي بفكرة جديدة فيؤسس عليها الشاعر مباني شعرية شامخة ويرجع إليه أيضا بنور يسلك الناس في ضوئها في الليل والنهار من دون خوف وخطر.

الخاتمة:

أخيرا يجدر بالذكر أن الرومانسية العراقية في مستهل نشأتها كانت انعكاسا للرومانسية الغربية والعربية التي ازدهرت وتطورت في مرحلتها الأولى في سوريا ومصر والمهجر وحمل الشعراء والكتاب العراقيون بعد ذلك رايتها. وأما في المرحلة الثانية أي بعد الحرب العالمية الثانية فقد حمل لواءها ومثلها شعراء العراق بأنفسهم أمثال بدر شاكر السياب وبلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي ويوسف عز الدين ونازك الملائكة وغيرهم من الأدباء والشعراء والكتاب وتمتاز رومانسيتهم بالأخيلة البديعة والمفاهيم العالية الحسنة التي لم تصل إليها الرومانسية العربية الأخرى وهذا بسبب اتصالهم بالآداب العالمية من البلدان المختلفة خاصة الأفكار الهندية والفارسية القديمة وذكر الأفكار التي لم يسبق إليها العرب، وأهم السمات الرومانسية هي كما يلي:

١. الثورة ضد الكلاسيكية والنفور من التقاليد البالية: تتكلم الرومانسية العراقية عن الأدب الثائر الذي يهتم بمصالح المجتمع وقضاياه ويرفع الصوت ضد المظالم والعدوان التي تعانيها الطبقة السفلى في المجتمع ويدعو الناس إلى الحرية والإخاء والمساواة بين الناس؛ ولذا نجد الشعراء الرومانسيين في العراق قد تمردوا وهجموا على جميع الأنظمة والقواعد الأدبية والأصول الفكرية والعادات الاجتماعية القديمة ودعوا الناس أول مرة في العالم العربي إلى ترك قيود الأوزان والقوافي وشجعوا الشعراء على تقريض "الشعر الحر" ليعبروا عما في قلوبهم وعقولهم من دون قيود وشروط. فانتشرت الحرية الفكرية والأخلاقية والحق والخير والعدل والمساواة.

٢. **القضايا الاجتماعية بدلا عن الفرار منها:**

تتكلم الرومانسية العراقية عن القضايا الاجتماعية خلافا عن الزهد والتصوف من أدب العصر العباسي بوجه خاص. وحينما نقوم بدراسة الحركة الصوفية والرومانسية في الأدب المعاصر بدقة وإمعان نجد كلاهما تصدران من منبع واحد وتعتمدان على مصدر واحد مع فرق جلي وهو

الذوق والكشف الذاتي وغلبة العاطفة على العقل في التصوف وفي الرومانسية: الذوق وغلبة العقل على العاطفة فقط. ويعني ذلك أن العقل ليس طريق المعرفة إلى الأسرار الإلهية عند الصوفيين بل العشق الإلهي والبعد عن الدنيا هو الطريق الوحيد لمعرفة الأسرار الإلهية، وأما صلته بالرومانسية فنجده قد تأثرت به الرومانسية وأخذت منه فكرة الفرار من المدن والمجتمع والاعتزال عن الناس عند الكآبة والحزن وعند المصائب والآلام وعند الفساد والدمار ولكن تختلف عن الصوفية الكلاسيكية إذ يتحدث الرومانسي في عصرنا عن التحرر من العبودية ليس البعد عن الدنيا ووضع الشعر في موضعه الحقيقي حسب قضايا المجتمع. ولذا نرى الرومانسيين العراقين كلهم يذهبون إلى الأماكن المزدحمة بالناس ويتجولون بينهم ويدعون الناس إلى مساعدة الإنسان والتعاون فيما بينهم.

٣. **الفرار من حياة المدن والعودة إلى أحضانِ الطبيعة:**

نجد الأدب الكلاسيكي في العراق يدور حول الحياة في المدن خلافا عن الأدب الرومانسي الذي يبحث عن الحياة في الأرياف ومجتمعاتها فينفر الرومانسيون إليها عند المصائب والأحزان والكآبة ويحبون الطبيعة ويلجأون إلى أحضانها. وذلك لأنها نقية طاهرة من كل الشرور والمفاسد مثل الطفل الذي يكون نقيا طاهرا عند ولادته من المعاصي والآثام وخاليا عن الحزن والكآبة واليأس والقنوط. فطبقا لهذه الأصول والمبادئ يهرب الشعراء من الحياة المدنية المؤلمة وبيئتها الملوثة من المفاسد والخرافات والحروب الدامية والدمار الشامل ويلجأون إلى أحضان الطبيعة للتمتع بمناظرها البهيجة ومنبع الأفكار الطاهرة. وفضلا عن ذلك إلى ذلك يحب الرومانسيون العراقيون الظلام والليل ومظاهر العواصف وأمواج البحر والمعابد الصامتة والقصور العتيقة الخالية بدلا من الأنهار والأنوار والقصور المعمورة والمعابد المزدحمة ورياح النسيم الصافية والأنهار الجارية بالسكون والهدوء لأنها تذكرهم ذكرى الموتى والقدامى من العظماء. وحب الطبيعة هو الذي دعا إليه الرومانسيون العراقيون ولأجل هذا الحب أنهم شدوا الرحال إلى القرى والأرياف وانتقوا الأبطال من بين الفلاحين والريفيين خلافا عن الأدب الكلاسيكي الذي يختار أبطالهم من بين القصور الشامخة والمدن المعمورة.

المراجع والمصادر:

١ إبراهيم الوائلي: الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦١م.
١. إبراهيم الوائلي: الشعر العراقي في ثورة العشرين، ١٩٦٠م. (لم يذكر اسم الطبع)
٢. إحسان عباس الدكتور: عبدالوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث دار بيروت، بيروت ١٩٥٥.
٣. إحسان عباس الدكتور: فن الشعر، دار بيروت، بيروت، عام ١٩٥٥م.
٤. أحمد أبو سعد: الشعر والشعراء في العراق، دار المعارف، بيروت ١٩٥٩م.
٥. أنيس الخوري المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، منشورات كلية العلوم والآداب، جامعة بيروت الأميركية، بيروت.
٦. أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٣م.
٧. بدر شاكر السياب: مجموعة ديوانه، دار العودة، بيروت، ١٩٧٤م.
٨. بلند الحيدري: حوار عبر الأبعاد الثلاثة، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد
٩. جعفر حسين خصباك الدكتور: العراق في عهد المغول الايلخانيين، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٨م.
١٠. داؤد سلوم الدكتور: تطور الفكرة والأسلوب في العرب العراقي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٩م.
١١. رفائيل بطي: الأدب العصري في العراق، المطبعة السلفية بمصر. القاهرة، ١٩٢٣.
١٢. رفائيل بطي: الصحافة في العراق، مطبعة معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٥م.
١٣. السيد عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، مطبعة العرفان، صيدا. لبنان، ١٩٧٢م.
١٤. السيد عبد الرزاق الحسني: العراق قديما وحديثا، مطبعة العرفان، صيدا . لبنان، ١٩٥٦م.
١٥. طراد الكبسي: مقدمات في الشعر، وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، بغداد.
١٦. عباس الغراوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ثمانية أجزاء، مطبعة بغداد الحديثة، بغداد، ١٩٣٥م.
١٧. عبد الرزاق الحسني: تاريخ العراق السياسي: ثلاثة أجزاء، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٧٥م.
١٨. عبد القادر رشيد الناصر: ديوانه، دار العوده، بيروت
١٩. عبد الكريم الدجيلي: محاضرات عن الشعر العراقي الحديث، مكتبة المعارف، بغداد.
٢٠. عبد الواحد لؤلؤة الدكتور: الشعر والفكر المعاصر، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٤.

٢١. عبد الوهاب البياتي: مجموعة ديوانه، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢م.
٢٢. علي عباس علوان الدكتور: تطور الشعر العربي الحديث في العراق، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٥م.
٢٣. فرحانة صديقي: نازك الملائكة وآثارها الأدبية والشعرية، غود ورلد بكس، نيو دلهي ٢٠٠٢.
٢٤. مجموعة من المؤلفين: موسوعة المصطلح النقدي "الرومانسية" ترجمها عبد الواحد لؤلؤة، دار الحرة للطباعة، بغداد.
٢٥. محمد حسين هيكل الدكتور: ثورة الأدب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، عام ١٩٦٥م.
٢٦. محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٧. محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٨. منذر الجبوري: شعراء عراقيون، المطبعة: الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام، ١٩٧٧م.
٢٩. ميخائيل نعيمة: المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤م.
٣٠. نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، مكتبة النهضة بمصر، ١٩٦٧م.
٣١. نازك الملائكة: مجموعة ديوانها، دار العودة، بيروت ١٩٧١م.
٣٢. ياسين الأيوبي الدكتور: مذاهب الأدب، دار العلم للملايين- بيروت ١٩٨٤م.
٣٣. يوسف عز الدين: الشعر العراقي (أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
٣٤. يوسف عز الدين: شعراء العراق في القرن العشرين، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٦٩م.
٣٥. يوسف عزالدين: الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

..... ❖❖❖❖❖ .....